الحمد لله ... مات ابني !

من يستطيع ذلك ؟
من يصبر عند الصدمة الأولى ؟
من يتصبّر فيقول عند نزول المصيبة وحلول الكارثة : (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) .
ولذا كان عمر رضي الله عنه يقول في هذه الآية : نعم العدلان ، ونعمت العلاوة .
قال المفسرون : أراد بالعدلين : الصلاة والرحمة ، وبالعلاوة : الاهتداء .

مَن يتصبر عند الصدمة الأولى هم القلّة

لما مر النبي صلى الله عليه وسلم بامرأة تبكي عند قبر ، فقال : اتقي الله واصبري . قالت : إليك عني ! فإنك لم تصب بمصيبتي ، ولم تعرفه فقيل لها : إنه النبي صلى الله عليه وسلم ، فأتت باب النبي صلى الله عليه وسلم فلم تجد عنده بوابين ، فقالت : لم أعرفك ، فقال : إنما الصبر عند الصدمة الأولى . رواه البخاري ومسلم .

هل تأملت العنوان ؟
الحمد لله ... مات ابني !

أهذا موطن من مواطن الحمد ؟
أيكون الحمد على المصيبة ؟

قال أبو سنان : دفنت ابني سنانا ، وأبو طلحة الخولاني جالس على شفير القبر ، فلما أردت الخروج أخذ بيدي ، فقال : ألا أبشرك يا أبا سنان ؟ قلت : بلى . قال : حدثني الضحاك بن عبد الرحمن بن عرزب عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته : قبضتم ولد عبدي ؟ فيقولون : نعم .
فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده ؟

فيقولون : نعم ، فيقول : ماذا قال عبدي فيقولون : حمدك واسترجع ، فيقول الله : ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد . رواه الإمام أحمد والترمذي وهو حديث حسن .

وروى البخاري من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله تعالى ما لعبدي المؤمن عندي جزاءٌ إذا قبضت صفيَّهُ من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة .

حدّث هشام بن عروة بن الزبير بن العوام رضي الله عنهم أن أباه عروةَ بنَ الزبير وقعت في رجله الآكلة ، فقيل ألا ندعوا لك طبيبا ؟ قال : إن شئتم . فقالوا : نسقيك شرابا يزول فيه عقلك ، فقال : امض لشأنك ، ما كنت أضن أن خلقا يشرب ما يزيل عقله حتى لا يعرف ربّه !! فوُضِع المنشار على ركبته اليسرى ، فما سمعنا له حسا فلما قُطِعتْ جعل يقول : لئن أخذت لقد أبقيت ، ولئن ابتليت لقد عافيت .
وما ترك جزأه بالقرآن تلك الليلة .

وكان مرةً في سفر فأصيب عروة بابنه محمد ركضته بغلة في اصطبل فلم يسمع منه في ذلك كلمة ، فلما كان بوادي القرى قال : (لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا) ثم قال : اللهم كان لي بنون سبعة فأخذت واحدا وأبقيت لي ستة ، وكان لي أطراف أربعة فأخذت طرفا وأبقيت ثلاثة ، ولئن ابتليتَ لقد عافيت ، ولئن أخذتَ لقد أبقيت .
قال الوليد بن عبد الملك : ما رأيت شيخا قط أصبرَ من هذا .

أما إنه أعطيَ عطاءً هو خيرُ عطاءٍ وأوسعُه .

فقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ومن يتصبر يصبره الله وما أعطي أحدٌ عطاء خيرا وأوسع من الصبر .

والتعزية مما يهوّن المصيبة .

مات ابنٌ لعبد الرحمن بن مهدي ، فجزع عليه جزعاً شـديداً حـتى امتنـع عـن الطعـام والشـراب ، فبلـغ ذلـك الإمـام الشافعي فكتب إليه أما بعد :

فَـعَـزِّ نفسك بما تـُعَـزِّ به غيرك ، ولتستقبح مـن فعلـك مـا تسـتقبحه مـن فعـل غيـرك ، واعلـم أن أمضـى المصـائبِ فقـْـدُ سـرورٍ مـع حرمـان أجـر ، فكيـف إذا اجتمعـا علـى اكتساب وزر ؛ وأقول :
إني مُعَزِّيكَ لا إني على طمع من الخلود ولكن سـُنّةُ الـدين
فما المُعزِّي بباقٍ بعد صاحبه ولا المُعـزَّى ولو عاشا إلى حين
فكانوا يتهادونه بينهم بالبصرة .

حضر ابـنُ السـماك جنـازةً فعـزَّى أهلهـا ، وقـال : عليكـم بتقوى الله والصبر ، فإن المصيبةَ واحدةٌ إن صبر لها أهلُها ، وهي اثنتان إن جزعوا ؛ ولعمري للمصـيبة بـالأجر أعظـم من المصيبة بالميت ، ثم قال : لو كان مَنْ جَزِعَ علـى مَيِّتِـهِ رُدَّ إليه لكان الصابرُ أعظم أجراً وأجزل ثواباً .

تَعَـزَّ فإن الصبر بالحـرِّ أجمل .... وليس على ريـب الزمـان مُعَـوّل
فلو كان يُغنـي أن يُـرى المــرء .... جازعـا لحادثـة أو كـان يُغني التذلل
لكان التّعـزي عنـد كــل مصـيبة .... ونائبــة بالحُــرِّ أولــى وأجملُ

ومما يُخفف من وقـع المصـيبة أن يتأمـل العبـد فـي ذلـك الميت :
فإن كان صغيرا فربما كان في مـوته خيـر لـه ولوالـديه إذا احتسبا الأجر

وربما كان في موته خير لوالديه .
كيف ذلك ؟

تأمل قصة موسى مع الخضر – عليهما السلام – كيف قتل الخضر غلاما صغيرا حتى قال موسى :
(أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا **) ؟**
لكن ما خفي على موسى عليه الصلاة والسلام وأظهره الله للخضر هو حقيقة ذلك الطفل لو عاش .
قال عليه الصلاة والسلام : إن الغلام الذي قتله الخضر طُبِعَ كافرا ، ولو عاش لأرهق أبويه طغيانا وكفرا . متفق عليه .
وهذا ما خشيه الخضر : (فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا**)**
وهذا من لطف الله بعباده ، أنْ خلّص أبويه منه حتى لا يُرهقهما طغيانا وكفراً بالله ، بل أبدلهما خيرا منه وأزكى ، وقد ورد أنه سبحانه أبدلهما به وخلف عليهما جارية ولدت نبياً أو أنبياء .

فسبحان من بيده ملكوت كل شيء ...
كم في طيّات الأمور من ألطاف اللطيف الخبير ؟
وكم هي العِبَر التي سُتِرت عن العباد ...
ولو كُشِفت لهم حجب الغيب لعلموا علم يقين أن الله أرحم بالعباد من أمهاتهم .
ولأدركوا أن المصائب مِحَنٌ في طيّها منحٌ .
وصدق الله :
(لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ **) .**

لا تحسبوه شراً لكم على مستوى الأفراد والشعوب
ما يُصيبك في خاصة نفسك فلا تحسبه شراً لك
وما يُصيب الأمة (لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ **) .**

ونحن اليوم نعيش مُصيبة أمّـة لا مُصيبة أفراد فحسب
نتعزّى بأن الفجـر قـادمٌ وبقـوّة
ولكن لا بُـدّ للفَجر من مخاض ، ولا بُـد للنور من وِلادة
وعندما ينبلج ضوء الحق تنبهر خفافيش الظلام
ويخنس صوت الباطل
وينقمع كل دَعيٍّ ومُنافق

تنوّعت الجــراح فلا اصطبار * يواجههـا ولا قلــب يُطيقُ**
يُدنّس عرض مُسلِمــة وتُرمــى * ويلطـم وجههــا وغــد حليقُ**
وتتبعهـــا مــلايين الضحــايا * تـذوق مـن المــآسي مــا تذوق**
وكم من مسجـد أضـحى رُكامــاً * وفـي محــرابه شــبّ الحريقُ**
تُعــذّبنـي نداءات اليتامـى * وصانع يُتمهـم حُـرٌّ طلـيقُ**
تُسافر بي الجراح فليت شعري * متى يحني على قدمي الطريقُ**
يُخـادعني العــدو فــما أُبالــي * وأبكـي حيـن يخـدعني الصـديق**
ســألت عــن الصــمود رجــال قــومي * فخــاطبني مــن الإعــلام بوقُ**

أتنسى أن إسـرائيل أخـتٌ ؟ * لها في المسجد الأقصــى حقوق**
كـأن رجــال أمــتنا قطيع * وإسرائيل في صَلَفٍ تسـوقُ**
وأمتنــا تنــام علـــى ســـــرير * تهدهــدها المفـــاتن والفسـوق**
كتاب الله يدعــوهــا ولكن * أراهــا لا تُحـسّ ولا تفيق**
أقـــول لأمتي والليل داجٍ * بِكَفّكِ لــو تأملتِ الشـروق**
..... شـــاعر الأمـــة / د. عبـــد الرحمـــن العشماوي